فكاهات

في القطار[1]

قال الراوي

دعتني احوال صحية الى ان اترك لندن واسافر الى ادمبرج وكنت على وشك البرء من كسرٍ برجلي اقعدني مدة في البيت فأخذت عربةً اقلتني الى المحطة فبلغتها قبل قيام القطار بربع ساعة . فابتعت تذكرتي ودخلت احدى العربات ولم يكن فيها سواي فاخترت محلاً مريحاً وجلست فيهِ . وكان الجوّ باردًا جدًّا والثلج يتساقط جوالح كبيرة كالقطن فوضعت دثارًا صفيقًا على كتفيَّ وشالاً من الصوف الغليظ حول جسمي ثم اخرجت كتابًا اخذت اقرأ فيهِ وكنت قد استصحبتهُ ليخفف عني بعض الملل في ذلك السفر الطويل . وبعد بضع دقائق كنت ارى المسافرين يردون الى المحطة افرادًا وازواجًا فتمنيت ان يرافقني في عربتي بعض من تطيب لي محادثتهم فاحصل على بعض التسلية . فمـا مضى الا هنيهةٌ حتى فتح باب عربتي ودخلت منهُ فتاة لا اظنها بلغت العشرين ولكنها رقيقة الخصر معتدلة القوام يظهر من خلال نقابها نورٌ يتدفق من وجهها اللطيف ونارٌ تنبعث من عينين احدّ من السهام فجلست بازآئي. وكان فيها جاذب جعلني لا ارفع نظري منها وحدثتني نفسي اننا سنتعارف وسنتحادث ونتصادق وستحبني واحبها و . . . ولكن ما اجهل الشباب واما اسرعهم في بنآء القصور في الهوآء

وقطع مجرى افكاري انفتاح الباب ثانيةً اذ دخل منهُ رجل اسكتلنديّ طويل القامة ذو لحية طويلة شقرآء لم يكن معهُ شيء من الامتعة فتخطى الى طرف الغرفة وجلس ثم استخرج من جيبهِ جريدة واستغرق في قرآءتها . ودخلت بعدهُ سيدة

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

متقدمة في العمر كبيرة الجسم ما صدقت ان وضعت امتعتها والتفت بشالها الصوفي حتى جلست لتستريح . وجاء بعدها ايضاً رجل عرفتهُ انهُ من تجار لندن فجلس الى جانبي

اما انا فجعلت انتقد هؤلاء القوم بنظرٍ خفيٍّ لارى من منهم تطيب لي محادثتهُ فكنت كلما نظرت الى احدهم يتحول نظري رغماً عني الى الفتاة الاولى وهي جالسة على المقعد الذي امامي وشعرت بشيء في صدري يوحي اليَّ ان هذه الملك من دون الباقين ستكون رفيقتي وتسليتي في السفر . وبينما كنا جميعنا في سكوتٍ تام اذا بالتاجر قد نظر من نافذة العربة وقال هوذا احد رجال التحنة السريين فلا بد من حصول حادثةٍ في هذا السفر . ونظرت فاذا الجميع قد تحولت ابصارهم الى النافذة وقالت السيدة الكبيرة اين هو وكيف عرفت انهُ من رجال الشحنة . قال هو ذا — واشار الى رجلٍ طويل القامة — وقد عرفتهُ من حذآئهِ فلا يلبس هذه الاحذية الا رجال الشرطة . ثم ان الرجل انزل قبعتهُ الى ما فوق عينيهِ كانهُ يود ان يخفيهما وهما مع ذلك تندفعان بنظر حادّ كانهما مصباحان كهربآئيان يستعملهما للبحث عن الغوامض وقد رأيتهُ مرَّ عدة دفعات امام القطار كانهُ يراقب احداً . وكنا جميعنا نراقب الرجل فوجدناهُ كما وصفهُ التاجر واذ ذاك صفر القطار علامة المسير وللحال فُتح باب غرفتنا ودخل منهُ الرجل المذكور و بيدهِ صندوق من الجلد فرفع قبعتهُ اكراماً للجلوس ثم وضع صندوقهُ وجلس . وما كاد يستقرّ بهِ المقام حتى رأيت دلائل الدهش والخوف والانقباض قد ارتسمت على وجه كلٍ من رفاقي ولا سيما الفتاة فانها انقبضت شديداً ورفعت شالها الى كتفيها ثم طأطأت رأسها بحيث لا يظهر وجهها . اما الباقون فمنهم من حوَّل وجههُ الى النافذة ومنهم من ستر وجههُ بجريدتهِ او كتابهِ كانهم قد استثقلوا هذا الضيف بينهم او كأن كلاًّ منهم قد تصور ان الشرطي انما هو قادم لالقآء القبض عليهِ . وراجعت انا افكاري فلم اتذكر انني فعلت شيئاً يستوجب تداخل رجال الحكومة فيهِ فلم ابتئس من قدوم هذا المسافر ورأيت انني الوحيد بين هؤلاء في نقاوة الضمير فجلست اراقب حركاتهم وقد رأيت فيها ما يلذّ

لي ولكنني خشيت على الفتاة ووددت ان اعلم ما الم بها واسعى في مساعدتها اذا كان ذلك في امكاني

وكان القطار قد سار بنا منذ دخول الرجل بين هزيم الرعود وعصف الرياح وسقوط الثلج وما زلنا كذلك حتى ابعدنا عن لندن وهجم الظلام فلم نعد نرى شيئاً سوى ارضٍ بيضآء مكسوة بالثلج . ولحظت ان الفتاة اخرجت دفترًا من جيبها عرفتهُ انهُ دليل المحطات فنظرَت اليهِ ثم نظرت في ساعتها وتنفست كمن سُرّي عنها. واذ ذاك شعرت ان القطار قد خفف مسيرهُ الى ان وقف وسمعنا احد رجالهِ ينادي باسم المحطة التي وقف فيها

واطلَّ الرجل الغريب من النافذة فتبعتهُ بنظري قليلاً ولما عدت الى نفسي رأيت محل الفتاة فارغاً ولم اجدها لاهي ولا امتعتها فعجبت جدًّا من هذا الاختفآء السريع وعلى الخصوص لانني كنت قد رأيت تذكرتها وعرفت انها مسافرة ايضاً الى ادمبرج وتحققت رغماً عن صوت ضميري أن للفتاة شأناً في مجيء رجل الشحنة السري والاَّ لما اظهرت ذلك الاضطراب حال دخولهِ وهذا الاختفآء عند اول فرصة ولكني اجتهدت ان انزع هذا الفكر من رأسي لان عواطفي دفعتني الى محبة الفتاة والدفاع عنها . ثم زاد تعجبي حين رأيت الاسكتلندي قد خرج ايضاً خُلسةً وتبعتهُ السيدة الكبيرة وقد حملت امتعتها وآخر الكل خرج التاجر ولم يبقَ في الغرفة سوايَ مع الرجل الغريب

وبينما انا اعجب مما ارى اذا بالغريب قد ادخل رأسهُ من النافذة ثم حمل صندوقهُ وبدون أن يلتفت الى احد خرج ايضاً من الغرفة وبقيت وحدي . فلم املك نفسي من الضحك على تشخيص هذه الرواية امامي وانا اودّ ان اصل الى آخرها وأرى ما ينتهي اليهِ الامر

وبعد نحو عشر دقائق عاد الرجل الغريب بصندوقهِ فوضعهُ في محلهِ وجلس حيث كان اولاً وعاد القطار الى مسيرهِ . وكأن الرجل انتبه الى خلوّ الغرفة فاظهر علامة التعجب ثم نظر اليَّ وقال ارى اصحابنا قد خرجوا جميعاً من هنا وقد فهمت

انهم كلهم مسافرون الى ادمبرج فما سبب تركهم هذه الغرفة يا ترى . فقلت لعلهم رأوا اصحاباً لهم في محلاتٍ اخرى فذهبوا لمرافقتهم . قال لا اظن ذلك بل لعلهم ازعجهم حضوري ففضلوا الابتعاد عني . فقلت بتبسم خفيف وانا من رأيك فانهم مذ عرفوا انك من رجال الشحنة تغيرت هيئاتهم وشعرت انهم كانوا يفضلون بعادك على مرافقتهم . فقال ضاحكاً وكيف عرفوا اني من رجال الشحنة . ثم كانهُ فطن من نفسهِ فقال حقاً ان هذه الاحذية تدل علينا مهما اجتهدنا في التخفي ولا ادري لماذا لا تنتبه الحكومة الى هذا الامر وتسمح لنا بلبس ما نراهُ موافقاً . ثم اتبع ذلك بقهقهةٍ غريبة لم ادرك معناها . فقلت لهُ اذاً ظن اصحابي في محلهِ وانت تسعى في القبض على احد المسافرين . فقال نعم ان بعض مهرة اللصوص المشهورين بسرقة الجواهر والحلى قد سرق صندوقاً فيهِ مبلغ من المصوغات الثمينة والحجارة الكريمة وهو في القطار وبالقرب منا . فقلت بتعجب اين هو وقد رابني ان يكون الرجل ظن بي سوءاً . فقال هو في العربة الثانية التي بازائنا . فقلت لهُ بما انك قد عرفتهُ فلماذا لم تلقِ عليهِ القبض قبل ان يركن الى الفرار . قال هيهات ان يفر فانا اتبع لهُ من ظلهِ الى ان نبلغ المحطة الاخرى فقد ارسلت اليها رسالة برقية وينتظرنا فيها نفر من الشرطة للقبض عليه

وسار القطار بنا مدةً والظلمة تزداد سواداً والثلج يزداد تساقطاً . فاخذ رفيقي صندوقهُ وكان اخبرني ان اسمهُ فيليب فرأيت احرف اسمهِ على الصندوق . ثم وضع يدهُ في جيبهِ وقال آه فقد نسيت مفتاح هذا الصندوق في البيت فكيف العمل لفتحهِ . فقلت وماذا تريد ان تأخذ منهُ . قال قد بلغ مني الجوع وفي هذا الصندوق شيء من الكعك . فرفعت يدي الى جهة صندوقي وقلت لهُ لا بأس فان معي شيئاً من الزاد وانا جائع ايضاً فاسمح لي ان اشاركك في طعامي . فقال لالا والحَّ عليَّ ان لا افعل ولم يمكني من فتح صندوقي بل اخذ من حيبهِ آلةً حديدية وضعها بين طبقتي صندوقهِ بمهارةٍ فسمعت انكسار الاقفال . ثم ادخل يدهُ فيهِ واستخرج عدداً من اللفائف فاودعها جيوبهُ وعاد فشدَّ الصندوق بر باطهِ الجلدي وارجعهُ الى مكانهِ واخذ واحدة

من تلك اللفائف ففتحها واذا فيها مقدار من الكعك اعطاني شيئاً منهُ فجعلنا نأكل ونتحادث والقطار ينهب الارض نهباً

وبعد حين قال لي رفيقي فيليب انهُ يخشى من اشتداد سقوط الثلج ان يغمر الخط الحديدي ويمنع مسير القطار وكأن نبوّتهُ جآءت في وقتها فلم نشعر الا وقد خف بنا المسير شيئاً فشيئاً الى ان وقف القطار في وسط ظلمة حالكة كادت تستر الانوار الكهربآئية القوية فلا ينبعث منها الا نور ضعيف جدًّا . وسمعنا السائق يقول ان القطار قد رزح تحت اثقال التلج المتراكم عليهِ وقد سُدّ طريقهُ فلا يستطيع التقدم وللحال رأيت ان جميع المسافرين قد اطلوا من نوافذهم ليروا ما الخبر . اما رفيقي فقال لي انهُ يخشى ان يغتنم اللص الفرصة ويهرب في تلك الظلمة فترك صندوقهُ واوصاني بهِ فوعدتهُ ان احتفظ بهِ وخرج . اما انا فعجبت من امرهِ لانهُ لما خرج اول مرة وكان صندوقهُ مقفلاً اخذهُ معهُ ولم يأمني عليهِ فكيف فعل ذلك الآن بعد ان كسر اقفال الصندوق . واتبعتهُ نظري حتى خرج من الباب وسار بضع خطواتٍ ثم اخفاهُ الظلام عني

وبينما المسافرون في حيرة شديدة رأينا نورًا يقترب الينا من جهةٍ اخرى حتى قارب القطار واذا برجلٍ يحمل مصباحاً كبيرًا فنادى باعلى صوتهِ قائلاً ايها السادة ان لي نزلاً على بعد نحو مئتي خطوةٍ من هنا وفيهِ ما يلزم من الطعام والاسرَّة لمن يشآء فاذا اراد احد ان يشرّفني الى ان ينقطع الثلج ويعود القطار الى مسيرهِ فاهلاً ومرحباً . وجآءت دعوة هذا الرجل كهبةٍ سماوية لجميعنا فصرخ الكل نعم نذهب نعم نذهب ولم يكن كلمح البصر حتى رأيت الركاب يخرجون من غرفهم وقد تأبطوا امتعتهم وتبعوا صاحب الدعوة . اما انا فخطر لي ان اذهب ايضاً ولكن رأيت ان انتظر رجوع فيليب لانهُ لا يصح ان اترك امتعتهُ بعد ان اوصاني بها ولكن بعد ما انتظرت كثيرًا ولم يرجع خشيت ان يسبقني القوم فلا اعود اتمكن من معرفة الطريق فنهضت وحملت باليد الواحدة صندوقي وباليد الاخرى صندوق فيليب وسرت وراء الجمع وكان الالم الباقي في رجلي والحمل الذي يديّ يمنعاني من السرعة فما بلغت

النزل الا وكان الجميع قد سبقوني فدخلت . واجلت نظري في الردهة لأجد لي محلاً فلم اجد ورأيت في بعض الزوايا جمعيةً مؤلفة من رفاقي الاولين الذين كانوا معي عند ابتداء السفر فسرت لاجلس بجانبهم ولكنهم ما رأوني حتى بدت على وجوههم علامات الاشمئزاز ولحظت ذلك فوضعت الصندوقين على الارض وجلست عليهما وكانت عيناي تتنقلان بين ذلك الجمع . وطرقت اذني بعض كلمات من رفاقي فهمت منها انهم يحسبوني ايضاً من الشحنة السريين والا لما بقيت وحدي مع الشحني في العربة والذي زاد اعتقادهم هذا ما رأوهُ حين دخولي اذ كنت حاملاً صندوق فيليب معي فعلمت اذ ذاك سبب نظرهم اليَّ بكرهٍ حين دخلت . وبعد قليل جاءني الرجل الاسكتلندي فوقف بجانبي وقال قد علمتُ انك من رجال الشحنة ايضاً فقل لي بصراحة هل تقصدونني انا . فتبسمت وقلت كلا . وكأنهُ أُفرج عنهُ فتنفس الصعداء وقال انني لم اترك زوجتي الا عن اسباب موجبة انا مستعد لايضاحها عند الطلب وقد ظننت انهـا سعت لدى الحكومة في طلب ارجاعي . فادركت اذ ذاك سبب اضطرابهِ اول ما علم بوجود شحنيٍّ سرّي وطمأنتهُ فشكرني ورجع الى مكانهِ . فقلت في نفسي لا بد ان يكون للباقين اسرارٌ اخرى وصرت ارغب ان اعرف السر الذي للفتاة فاتتني . وبعد قليلٍ جاءتني السيدة الكبيرة فقالت اذا كنت انا غرضكم فارجو منك ان لا تسمح باهانتي امام الحضور وانا مستعدة ان اتلو عليك قصتي فتعلم منها انهُ لم يكن لي دخلٌ قط في الامر . وقبل ان تتم حديثها وتفضح اسرارها اشرت اليها بالسكوت وقلت لها كوني مطمئنة ايتها السيدة فلستِ انت غرضنا في هذه الليلة . فاشرق جبينها فرحاً وسُرّي عنها وعادت الى كرسيها . ثم جاء بعدها التاجر ومشى امامي ذهاباً واياباً كانهُ انتظر ان افاتحهُ انا بالحديث وكان في يدهِ كتاب مكتوب عليهِ اسم سميث عرفت انهُ اسمهُ . ثم توقف فجأةً وجاء اليَّ فقال ارجو منك ايها السيد ان تتأكد انني لم افرّ من لندن بقصد ان لا ادفع ديوني التي تُستحقّ غداً ولكني انتظر مبلغاً سيرد عليَّ بعد يومين فرأيت الافضل ان اغيب عن محل شغلي الى حين ورود المـال وهذه هي الحقيقة بتمامها . فقلت لهُ انا اعلم استقامتك

يا حضرة المستر سميث فكن براحة بال فاننا لا نمسُّك بسوء ما دام في نيتك الوفآء فسرَّ الرجل جدًّا لجوابي وتعجب حين رآني اكلمهُ باسمهِ فشكرني وذهب . وكنت انتظر ان تقدم اليَّ الفتاة بعدهُ ولكنها لم تفعل بل زادت في التخفي ورآء اصحابها وهي تودّ ان لا يرى احدٌ وجهها . وكانت نفسي تحدثني ان اذهب انا اليها واكلمها واذا بباب الردهة قد فتح فسمعنا ضجةً ولغطًا في الخارج ثم دخل صاحب النزل فاحدق الجميع بهِ مستفهمين عن السبب فقال ان دوقةً في ادمبرج بعثت الى وكيلها في لندن ان يرسل اليها جواهرها وحليها المودعة في البنك لتلبسها في حفلةٍ رسمية ولم يأمن الوكيل على هذه الجواهر فوضعها في صندوق وسافر بهِ بنفسهِ ليوصلهُ سالمًا. وكان يخشى ان يصادفهُ حادث في الطريق فطلب من ادارة الشحنة ان ترسل معهُ اثنين من رجالها يحرسانهِ في الطريق . وعلم بذلك احد دهاة اللصوص فسافر في نفس القطار ولما وقف القطار في اول محطة تفقد الوكيل صندوقهُ فوجدهُ خاليًا من تلك الجواهر فطار رشدهُ واعلم الحارسين فوعداهُ بالقآء القبض على السارق . وقد امسكاهُ الآن حقيقةً وهو يقاوم ويمانع ولكنهما تمكنا من ايثاقهِ وسجنهِ في الغرفة السفلى

فتعجب الجميع من هذا الحادث ونظرت الى رفاقي وخصوصًا الفتاة فرأيتهم قد عادت النضارة الى وجوههم وتحققوا انهم في امان . وكنت انا اعجب من مهارة فيليب في القبض على الجاني واقول في نفسي انهُ لا بد ان ينال مكافأة وافرة . ثم فتح باب الردهة ثانيةً ودخل منهُ رجلٌ طويل القامة اشقر اللون اجال نظرهُ الحاد في الغرفة حتى وقع عليَّ فاقترب مني وهمس في اذني قائلاً هات هذا الصندوق واتبعني . فقلت لهُ انهُ ليس صندوقي وانهُ للشرطي فيليب اوصاني بهِ فلا يمكنني التصرف فيهِ قبل رجوعهِ . فتبسم الرجل وقال ليس فيليب بشرطي بل هو ادهى لصوص انكلترا وقد اصبح في قبضتنا فهات الصندوق واتبعني . ولو وقعت عليَّ صاعقة في تلك الدقيقة لما اثرت فيَّ اكثر من الكلام الذي سمعتهُ وقلت سيحسبوني الآن شريكاً لهُ ويلقى عليَّ القبض ولكنني شددت عزائمي فحملت الصندوق

وسرت ورآء الرجل . وما بلغت باب الردهة حتى سمعت جميع المسافرين يقول بعضهم لبعض انني انا احد الشحنة فسرني ذلك وقلت في نفسي انهُ اشرف من اعتقادهم اني شريك السارق . وذهب بي الدليل الى غرفةٍ اخرى فيها فيليب موثق الايدي والى جانبهِ الشحني الآخر فلما وقعت عينهُ عليَّ تبسم طويلاً كانهُ في تمام السرور . وطلب الشحنيّ تقريري عما اعلمهُ عن فيليب فاخبرتهُ بجميع ما حصل

وظهر اذ ذاك من اقرار فيليب انهُ علم بسفر الوكيل بالجواهر فابتاع صندوقاً يشابه صندوق الوكيل ولما وقف القطار في المحطة الاولى وخرج من غرفتي حاملاً صندوقهُ ذهب الى الغرفة الثانية وبمهارةٍ غريبة انتشل صندوق الوكيل ووضع صندوقهُ مكانهُ ثم ابتاع قليلاً من الكعك وعاد الى غرفتي وانهُ لما كسر اقفال الصندوق واخرج منهُ اللفائف التي قال انها مأكولات لم تكن الا العلب التي أُودعت فيها تلك الحلي الثمينة . وكان رجلا الشحنة قد استدعيا وكيل الدوقة ايضاً فاخذوا يخرجون من جيوب فيليب تلك اللفائف وهو يفحصها حتى استرجع الجميع ووجد انهُ لم يفقد لهُ شيء ثم اخذ الرجلان فيليب وسارا بهِ الى حيث يسلمانهِ الى القضآء وكان يسير بينهما ضاحكاً . ثم نظر اليَّ وقال الى الملتقى ايها الرفيق فقد اعجبتني طيبة قلبك وسلامة صدرك وعسى اني في النوبة الآتية يصادفني من اعتمد عليهِ نظيرك

اما انا فرجعت الى الردهة وكان الجميع منتظرين ليفهموا نهاية الامر فاخذوا يسألوني عن السبب وكانوا كما ذكرت يعتقدون انني من رجال الشحنة فحافظت على اعتقادهم وقلت لهم بافتخار اننا قبضنا على اللص واسترجعنا السرقة الى صاحبها وارسلنا اللص الى السجن . فبدت علائم العجب على جميع الحاضرين وجعلوا ينظرون اليَّ بوقار واحترام حتى ان الفتاة نفسها لم تعد تخاف مني بل جآءت الى جانبي وجعلت تحادثني

و بعد ان تناولت شيئاً من القوت في النزل انصرفنا الى غرفنا ونمنا وعند ظهر اليوم الثاني قيل لنا ان الطريق قد كُسح الثلج عنها وان القطار على اهبة المسير فاسرعنا اليهِ للحال واجتهدت هذه المرة ان لا افارق الفتاة فجلست معها في غرفة